

«مارتير» مسرحية تعالج ظاهرة التطرف الكونية من أعماقها

الفاضل الجعابي يصنع شهيدا مزيفا لنقد واقع يوشك على الانفجار



العلاقات في العرض تبدو معقدة ومتداخلة للغاية، ولعل أهم سماتها هي الميول المثلية التي تطرح قضية مثيرة

لا جدل على أن أخطر الظواهر الكونية اليوم هي الإرهاب، الذي لم يعد حكرا في نشأته على البيئة المتطرفة والمنغلقة، بل بات أكثر انتشارا حتى في عواصم أوروبية متحضرة وديمقراطية، ولها مستويات حياتية جيدة. بات الإرهاب يهدد أمن الأفراد والمجتمعات ويرعب الجميع، خاصة ممن يقدونه أو يحاولون علاجه، لذا من الضروري اليوم انتهاز سبل جديدة في معالجة هذه الظاهرة، ترصد أعماق جذورها لتمنع انتشارها وتستأصلها بليوننة مشرط الجراح، كما نرى في العرض المسرحي التونسي «مارتير».



محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

تستمر في قاعة الفن الرابع بتونس العاصمة عروض المسرحية الجديدة للمخرج المسرحي التونسي الفاضل الجعابي «مارتير»، والتي تأتي عروضها مع عودة المسرح التونسي تدريجيا إلى النشاط، مع تطبيق كافة الإجراءات الصحية الاحترازية.

والمسرحية من تمثيل أوس الزبيدي، نهي النفاثي، مالك شفرود، مي السليم، كالرا الفتوي الهوي، مهدي عياد، سوار عبداوي، أمان الله عتروس، وحمزة الورتاني. وهي مأخوذة عن نص بنفس العنوان للكاتب الألماني ماريوس فون ماينبرغ، قام بترجمته والمساعدة في إخراجه المخرج المتربص حمزة الورتاني. وبعد مشاهدة العرض والأداء التمثيلي المميز، ربما هنا نفهم ما كتب على جذادة العرض، «عندما تستقبل العائلة وتنهز المنظومة التربوية وبيتها الدين بين الشعوذة والانتهازية ويتهور المجتمع ويتوحش، ولا يبقى فيه إلا القليل القليل ممن يؤمنون بالعلم الرشيد، يصبح لا حول للشباب الضائع إلا التثبث بقيم «الإنقاذ» الديني المتشدد ويحد السيف القاطع».

المسيح القاتل

نبدأ قراءتنا لمسرحية «مارتير» من المشهد الأخير، الذي بلغه العمل بعد انقضاء ساعتين تقريبا، المشهد الأخير شاب يستل مسدسا ويقتل كل من حوله. «فعل إرهابي» سيجتاز إلى كل من ينظر إلى هذا المشهد مجتزأ، لكن هل هو فعل وليد لحظته؟

المسرحية تجيب قطعاً بـ«لا»، حيث تعالج أخطر الظواهر الكونية اليوم من أعماقها القديمة والمتجذرة في النفوس والواقع والمحيط الاجتماعي، وغيرها من جذور لا مريئة، يكفي عدم معالجتها وظروف مناسبة ليندلع من خلالها عنف لا مثيل لوحشيتها.



العروض تمكن من رصد مكامن مرض التطرف والشعوذة والدجل وما يقابلها من استهتار و فراغ وفوضى وتسيب

مسرحية تتهم العائلة والمدرسة بصناعة التطرف

النص مترجم، لكن نستدرك عبر سؤال بسيط: ماذا لو كان البطل مسلماً؟ ماذا لو كان الكتاب الذي تسخر منه أستاذة العلوم القرآن؟ ماذا لو غيّرنا القس بإمام مسجد والكنسي بجماع؟

الإجابة واضحة جداً، سيهيج ويموج عدد كبير من المؤمنين، بلا فكر موجّهين كل عنفهم وغضبهم تجاه المسرح، غضب قد يصل إلى العنف والتدمير، في خمرة من اللاوعي التي تمد جذورها عميقاً في كل أفراد هذه المجتمعات التي لم تنتج التحضر، فـ«التحضر صناعة استعمارية»، إنها مجتمعات تدعي الحضارة، وليس ذنب أفرادها، بل الذنب الكبير هو المؤسسة التعليمية، التي ما تزال تدرّس إلى اليوم وفق تقسيم ديني وطبقي وجهوي وعرقى، التمييز والتعصب، ولو من دون وعي، هذا علاوة على العائلة التي يبدو دورها إما مغيباً وإما سلبياً كما رأينا في حالة بنجامين أو الطفل الأعرج، الذي يأتي به والده كل يوم متأخراً إلى المدرسة يتركه ويذهب.

تكفي نظرة سريعة لتعرف أن أغلب العائلات مفكك ومنهار ومتخلف، أما المدارس، فأغلبها يعاني من ضعف المناهج والرجعية وقلّة خبرة الإطار التربوي واقتراء البنية التحتية.

إذا أردنا أن نبحث في أمراضنا فلنعد إلى مؤسستين هامتين، العائلة والمدرسة، وإذا أردنا أن نعرف مستقبل شعب ما، فلننظر أوضاع العائلات والمدارس.

تتمكّن العرض من رصد مكامن مرض التطرف وما يقابله من استهتار و فراغ وفوضى، في الفوضى ينمو المتطرفون وتتسّد أفكارهم ظلاماً يقينياً، وحينها يصبح من الصعب علاجهم. وإن كان العرض يتحدث عن المسيحية، فإن ذلك لا يعدو أن يكون مطية لنقد المجتمعات العربية التي ينخرها التقسيم العرقي والطائفي، والتي يتدخل فيها رجال الدين في كل تفاصيل الحياة من دخول الحمام إلى لون الملابس.

يفضح العرض الشعوذة والدجل الذي يمارسه المتطرفون، كما يعري نفاق رجل الدين، الذين يستعملون مكانتهم الروحية لاستغلال النساء والأطفال وغيرهم من ميولات مرضية، قد نرى أن النقد لم يكن مباشراً للمجتمع العربي، وقد يبرر منتجو العرض ذلك بأن



ناحية أخرى لا يمكن مطلقاً مجتمع أن يتقدم في ظل التمييز العرقي والديني وتقسيم المجتمع وفق هذا التمشي. في تونس مثلاً، الديمقراطية الناشئة يشترط أن يكون الرئيس مسلماً، ومن هنا ونحن متجهون إلى قاعدة الهرم، يفاجئنا التمييز الديني وحتى العرقي، الذي يعلو على كل معطى آخر، وهذا ما يخلق نوعاً من النفاق الاجتماعي، الذي لن يؤدي بالضرورة إلا إلى مشهد مفرغ ومكذوب، لا يفرخ إلا العنف والفراغ الحسي والفكري والجمالي.

العائلة والمدرسة

وجاءت لغة العرض مختلطة بين اللهجة الشامية والتونسية والعربية، كل ممثل حسب لهجته، وإضافة إلى المكان المتخيل وغير المدعوم بديكور، خلق الجعابي مزيجاً تغريبياً مثيراً للتساؤل للولوج إلى القضية الأساسية التي يريد معالجتها، التطرف، والتناحر، وعدم قبول الآخر.

الكثير من المشاهد التي فضحها العرض كرسات العنف والكذب والنفاق، ما قامت به أستاذة العلوم إريكا من تصدّ عنيف لبنجامين كان يمكن أن يكون أقل حدة، إنقاذ من التطرف الذي يبتلعه يوماً بعد آخر، ومعاملة الأم لابنها، وهي التي تعاني بدورها في مجتمع لا يرحم، كانت قاصرة عن الإحاطة به، كما كانت ممارسات القس تجاه الأم ومحاولته الإعتداء عليها جنسياً، كلها كشفت مدى الزيف الذي يعترى المؤسسة الدينية، وعجز المجتمع العلمي والعائلي عن معالجة التطرف. ما يخلق سؤالاً: كيف نعالج التطرف؟

وصلنا سابقاً إلى قناعة حول التحضر، بأن مقياسه هو النظام المدني لا الأعراف، فيقاس التحضر بمدى قبول الفرد بالمدينة كنظام، ومدى ترسخ فكرة المجتمع المتنوع والذي ينخرط كل أفراد تحت شعار المواطنة، وانتفاء التمييز الديني والعرقي أو الشكلي، ومدى قبول اختلاف الميولات الفردية ومن بينها الجنسية.

في المجتمعات التي تطمح للتقدم والإنجاز الحضاري، الميولات الفردية دينياً و جنسياً هي فردية ولا مجال للتدخل فيها من قبل الآخرين أفراداً أو جماعات ما بقيت تخص الفرد، ومن

شخصية مهترزة، لم تجد صديقاً حقيقياً واحداً، وهذا ما استغلّه بنجامين. مع تطور العلاقة التي كانت تشبه علاقة القائد وتابعه المخلص، المستعد لأي شيء لإرضائه، ولو كان قتل أستاذة العلوم، تنكشف رغبات الأعرج المثلية في محاولته لتقبيل بنجامين على البحر، فيما كان الأخير يحاول إقناعه بأفكاره وبضرورة مقاومة دعاة العلم والتفسيخ والانحلال.

الانتقال من مشهد إلى آخر كان دقيقاً، من المسيح إلى قاعة الدرس ومنها إلى المصعد إلى البحر والكنيسة والمزمل، كل مشهد يحمل دلالاته ومكانته في البناء الدرامي للعمل، الذي لا اختلاف على ملحميته.

وعادت لغة العرض مختلطة بين اللهجة الشامية والتونسية والعربية، كل ممثل حسب لهجته، وإضافة إلى المكان المتخيل وغير المدعوم بديكور، خلق الجعابي مزيجاً تغريبياً مثيراً للتساؤل للولوج إلى القضية الأساسية التي يريد معالجتها، التطرف، والتناحر، وعدم قبول الآخر.

الكثير من المشاهد التي فضحها العرض كرسات العنف والكذب والنفاق، ما قامت به أستاذة العلوم إريكا من تصدّ عنيف لبنجامين كان يمكن أن يكون أقل حدة، إنقاذ من التطرف الذي يبتلعه يوماً بعد آخر، ومعاملة الأم لابنها، وهي التي تعاني بدورها في مجتمع لا يرحم، كانت قاصرة عن الإحاطة به، كما كانت ممارسات القس تجاه الأم ومحاولته الإعتداء عليها جنسياً، كلها كشفت مدى الزيف الذي يعترى المؤسسة الدينية، وعجز المجتمع العلمي والعائلي عن معالجة التطرف. ما يخلق سؤالاً: كيف نعالج التطرف؟

وصلنا سابقاً إلى قناعة حول التحضر، بأن مقياسه هو النظام المدني لا الأعراف، فيقاس التحضر بمدى قبول الفرد بالمدينة كنظام، ومدى ترسخ فكرة المجتمع المتنوع والذي ينخرط كل أفراد تحت شعار المواطنة، وانتفاء التمييز الديني والعرقي أو الشكلي، ومدى قبول اختلاف الميولات الفردية ومن بينها الجنسية.

في المجتمعات التي تطمح للتقدم والإنجاز الحضاري، الميولات الفردية دينياً و جنسياً هي فردية ولا مجال للتدخل فيها من قبل الآخرين أفراداً أو جماعات ما بقيت تخص الفرد، ومن

شخصية مهترزة، لم تجد صديقاً حقيقياً واحداً، وهذا ما استغلّه بنجامين. مع تطور العلاقة التي كانت تشبه علاقة القائد وتابعه المخلص، المستعد لأي شيء لإرضائه، ولو كان قتل أستاذة العلوم، تنكشف رغبات الأعرج المثلية في محاولته لتقبيل بنجامين على البحر، فيما كان الأخير يحاول إقناعه بأفكاره وبضرورة مقاومة دعاة العلم والتفسيخ والانحلال.

الانتقال من مشهد إلى آخر كان دقيقاً، من المسيح إلى قاعة الدرس ومنها إلى المصعد إلى البحر والكنيسة والمزمل، كل مشهد يحمل دلالاته ومكانته في البناء الدرامي للعمل، الذي لا اختلاف على ملحميته.

وعادت لغة العرض مختلطة بين اللهجة الشامية والتونسية والعربية، كل ممثل حسب لهجته، وإضافة إلى المكان المتخيل وغير المدعوم بديكور، خلق الجعابي مزيجاً تغريبياً مثيراً للتساؤل للولوج إلى القضية الأساسية التي يريد معالجتها، التطرف، والتناحر، وعدم قبول الآخر.

الكثير من المشاهد التي فضحها العرض كرسات العنف والكذب والنفاق، ما قامت به أستاذة العلوم إريكا من تصدّ عنيف لبنجامين كان يمكن أن يكون أقل حدة، إنقاذ من التطرف الذي يبتلعه يوماً بعد آخر، ومعاملة الأم لابنها، وهي التي تعاني بدورها في مجتمع لا يرحم، كانت قاصرة عن الإحاطة به، كما كانت ممارسات القس تجاه الأم ومحاولته الإعتداء عليها جنسياً، كلها كشفت مدى الزيف الذي يعترى المؤسسة الدينية، وعجز المجتمع العلمي والعائلي عن معالجة التطرف. ما يخلق سؤالاً: كيف نعالج التطرف؟

العلوم اليهودية إريكا روث، وهو ما لا يحدث، وبالتالي تنهار علاقة الصداقة المصطنعة، وهذه دلالة عميقة على أنه لا صداقة مع المتطرفين مهما أبدوا من طيبة مصطنعة فأهدافهم لا إنسانية، فهم في الحقيقة في حاجة إلى علاج جذري.

الجعابي خلق مزيجاً تغريبياً مثيراً للتساؤل للولوج إلى القضية الأساسية التي يريد معالجتها، التطرف وعدم قبول الآخر

لم يُعالج بنجامين الذي يعيش مع أمه المطلقة، والتي تعاني بدورها من الوحدة وتمارس علاقات اكتشف إحداها ابنها، ولم تستطع المدرسة تنشئته بشكل سليم، كما لم تتمكن عائلته المنهارة من ذلك، وحتى المجتمع الغارق في الفوضى. هو إذن شاب وحيد منغل، يشبه قنبلة موقوتة، وخطر على نفسه وعلى الجميع بمن فيهم أقرب الناس إليه وهي أمه.

العلاقات المعقدة

تبدو العلاقات في العرض معقدة ومتداخلة للغاية، ولعل أهم سماتها هي الميول المثلية التي أراد من خلالها الجعابي طرح قضية أبعد منها. ربما كانت المثلية السامة الأكثر إحداثاً للصدمة لأي كان، وخاصة في المجتمعات المحافظة مثل المجتمعات العربية، لكن لنقولها جانباً، ونتأمل في دواخلنا بتجرد، ألا نحمل ميولاً غريبة خارجة عن قانون الجماعة والمجموعات البشرية، البيست ميولاً جنسية فانتازمية، ميولاً شهوانية وأخرى ربما جمالية أو في تظاهرات ما؟

الميول كثيرة داخل كل منا إلى حد أنها قد تتناقض في ما بينها، وهو ما نجدّه مجسداً في شخصية المدير، وهي ذات ميول مثلية، تنكشف في محاولتها استعمال أستاذة العلوم، بينما تمثل في جانب آخر الصرامة والنظام، وفي جانب آخر العقلية الكلاسيكية حيث ترفض مثلًا حصة التربية الجنسية التي تقدمها أستاذة العلوم للطلاب، إنها شخصية مركبة باتم معنى الكلمة، إلى الحد الذي باتت معه غير جديرة بقيادة مؤسسة تربوية، وكم من شخص لا صلاحة لأجل أن تطول ساقه، لكن ذلك لا يحصل، بينما حقيقة العلاقة بين الشابين هي الميول المثلية اللغائي الذي وجد في بنجامين الصديق الوحيد الذي لا يتنمر عليه، والذي أوهمه بأنه الأكثر صداقة وقررة على مصداقته وبذل المحبة لأجله، فقط إذا قام بتدبير حادث قاتل لأستاذة

في مشهد مفارق يفضح الشعوذة، يأخذ بنجامين صديقه الأعرج ويشرع في الصلاة لأجل أن تطول ساقه، لكن ذلك لا يحصل، بينما حقيقة العلاقة بين الشابين هي الميول المثلية اللغائي الذي وجد في بنجامين الصديق الوحيد الذي لا يتنمر عليه، والذي أوهمه بأنه الأكثر صداقة وقررة على مصداقته وبذل المحبة لأجله، فقط إذا قام بتدبير حادث قاتل لأستاذة